﴿ وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

من الآية ١٦٩ سورة الأعراف

وهذا يعنى التنبيه بأنه من الواجب قبل أن تفعلوا الفعل أن تنظروا ما يعطيه من خير ، وأن تتركوه إن كان يعطى الكثير من الشر ، وزنوا المسألة بعقولكم ، وساعة أن تزنوا المسألة بعقولكم ستعرفون أن عمل الخير راجح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

إنّ الكثير من بنى إسرائيل ورثوا الكتاب ، وأخذوا العرض الأدنى ، ولم يزنوا الأمور بعقولهم ؛ لذلك لم يتمسكوا بالكتاب ، وتركوه ، وساروا على هواهم ؛ كأنهم غير مقيدين بمنهج افعل كذا ولا تفعل كذا ، ويقابلهم بعض الذين يتمسكون بالكتاب الذى ورثوه ، ولا يقولوا على الله إلا الحق .

ومادة الميم والسين والكاف تدل على الارتباط الوثيق ؛ فالذى يجعل الانسان متصلاً بالشيء هو ماسكه ، وتقول : « مسَكَ » وتقول : « مسَّك » ، و « أمسك » ، وتقول « استمسك » ، و « تماسك » ، وكلها مادة واحدة . وقوله الحق : « يمسّكون » مبالغة فى المسك ، مثل قطع وقطّع ، ولكن قطّع أبلغ .

و(مسَّك) يعنى أن الماسك تمكن مما يمسك ، و(استمسك) أى طلب ، و(تماسك) أى أنّ هناك تفاعلاً بين الاثنين ؛ بين الماسك والممسوك . ومن رحمة ربنا أنه لا يطلب منا أن نمسك الكتاب . بل يطلب أن نستمسك بالكتاب ، ولذلك يوضح لك الحق سبحانه وتعالى : إن أنت ملت إلى القرب منى والزلفى إلىّ ، فاترك الباقى عنك فالمعونة منىّ أنا ، ولذلك يدلنا على أن من ينفذ منهج القرآن لايلقى الهوان أبدا ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ وهنا يستخدم

الحق سبحانه كلمة (استمسك) لا كلمة مسك ، فمن وجه نيته فى أن يفعل يعطيه الله المعونة ، ولذلك يقول سبحانه فى الحديث القدسى :

« أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ، ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن تقرب إلىّ بشبر ، تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلىّ ذراعا ، تقربت إليه باعا ، وإن أتانى يمشى ، أتيته هرولة[1] » .

فأنت بإيمانك بالله تعزز نفسك وتقويها بمعونة الله لك . فإن أردت أن يذكرك الله فاذكر الله ؛ فإن ذكرته فى نفسك يذكرك فى نفسه ، وإن ذكرته فى ملأ يذكرك فى ملأ خير منه ، وإن تقربت إليه شبراً تقرب إليك ذراعاً ، فماذا تريد أكثر من ذلك ، خاصة أنك لن تضيف إليه شيئاً ، إذن فالموقف فى يدك ، فإذا أردت أن يكون الله معك فسر فى طريقه تأت لك المعونة فوراً . وهكذا يكون الموقف معك وينتقل إليك ، وذلك بإيمانك بالله وإقبالك على حب الارتباط به .

ولذلك قلنا من قبل : إن الإنسان إذا أراد أن يلقى عظيماً من عظماء الدنيا وفى يده مصلحة من مصالح الإنسان فهو يكتب طلباً ، فإما أن يوافق هذا العظيم وإما ألاّ يوافق ، وحين يوافق هذا العظيم يحدد الزمان ويحدد المكان ، ويسألك مدير مكتبه عن الموضوعات التى ستتكلم فيها ، وحين تقابله وينتهى الوقت ، فهو يقف من كرسيه لينهى المقابلة ، هذا هو العظيم من البشر ، لكن ماذا عن العظيم الأعظم الأعلى الذى تلتقى به فى الإيمان ؟ أنت تلقى الله فى أى وقت ، وفى أى مكان ، وتقول له ما تريد ، وأنت الذى تنهى المقابلة ، ألا يكفى كل ذلك لتستمسك بالإيمان ؟ .

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ الصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والكتاب هنا هو الكتاب الموروث ، والمقصود به التوراة وهو الذى درسوا

(١) من صحيح البخارى فى كتاب التوحيد ، وأخرجه مسلم فى صحيحه بثلاث طرق عن أبى هريرة ، كما أخرجه الترمذى وابن ماجه .

ما فيه ، وقد أخذ الله فى هذا الكتاب الميثاق عليهم ألا يقولوا على الله إلا الحق ، والحق يقول هنا : ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ فهل هذا الكتاب ليس فيه إلا الصلاة ؟ لا ، ولكنه خص الصلاة بالذكر ، لأننا نعلم أن الصلاة عماد الدين ، وعرفنا فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أن الصلاة قد فرضت بالمباشرة ، وكل فروض الإسلام - غير الصلاة - قد فرضت بالوحى .

لقد قلنا من قبل ولله المثل الأعلى ، إن رئيس أى مصلحة حكومية حين يريد أمراً عادياً رُوتينياً ، فهو يوقع الورق الذى يحمل هذا الأمر ويكتب عليه : « يعرض على فلان » ويأخذ الورق مجراه ، وحين يهتم بأمر أكثر ؛ فهو يتحدث تليفونياً إلى الموظف المختص ، وحين يكون الأمر غاية فى الأهمية القصوى فهو يطلب من الموظف أن يحضر لديه ، وهكذا فرضت الصلاة بهذا الشكل لأنها الإعلان الدائم للولاء لله خمس مرات فى اليوم ، وإن شئت أن تزيد على ذلك تنفلا وتهجداً فعلت .

إنك بالصلاة توالى الله بكل أحكامه ، إنك توالى الله بالزكاة كل سنة ، وبالصوم فى شهر واحد هو رمضان ، وبالحج مرة واحدة فى العمر إن استطعت . لكن الصلاة ولاء دائم متجدد ، ولأن الصلاة لها كل هذه الأهمية ؛ لذلك لا تسقط أبداً . وأركان الإسلام - كما تعلم - خمسة ؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، إنها الإيمان بالله وبالرسول كوحدة واحدة لا تنفصل ، ويكفى أن يتلفظها الإنسان مرة لتكتب له ، ثم تأتى أركان الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والحج ليس ركناً مفروضاً إلا على من يستطيعون . قد لا يكون للإنسان مال يخرج عنه الزكاة ؛ فلا يجب عليه إخراج شىء حينئذ ، وقد يكون الإنسان مريضاً أو مسافراً فلا يصوم .

إذن فبعض فروض الإسلام قد تسقط عن المسلم ، إلا الصلاة فهى لا تسقط أبداً ؛ لأن فى الصلاة فى ظاهر الأمر قطعا لبعض الوقت عن حركة عملك ، وإن كان كل فرض يأخذ مثلاً نصف الساعة ، فالإنسان يقتطع من وقته ساعتين ونصف الساعة كل يوم فى أداء الصلاة . والوقت عزيز عند الإنسان . ففى الصلاة بذل لبعض الوقت الذى يستطيع أن يكسب الإنسان فيه مالاً ، وفيها أيضا الصوم عن الأكل والشرب ومباشرة الزوجات . ففيها كل مقومات أركان الإسلام ، لذا فهى لا تسقط أبدا .

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ ﴾

(من الآية ١٧٠ سورة الأعراف)

إذن الاستمساك واضح هنا جداً ، وأداء الصلاة تعبير عن الالتزام بالاستمساك بمنهج الإيمان . ولذلك تسمع من يقول : حين ذهبنا إلى مكة والمدينة عشنا الصفاء النفسى والإشراق الروحى ، وعشنا مع التجلى والنور الذى يغمر الأعماق . وأقول لمن يقول ذلك : إن ربنا هنا هو ربنا هناك ، فقط أنت هناك التزمت ، وساعة كنت تسمع الأذان كنت تجرى وتسعى إلى الصلاة ، وإذا صنعت هنا مثلما صنعت هناك فسترى التجليات نفسها . إذن إن صرت على ولاء دائم مع الحق سبحانه وتعالى فالحق لن يضيع أجرك كأحد المصلحين . لأنه القائل : ﴿ إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ .

وهذه قضية عامة ، والحق سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المصلح . وقوله : ﴿ لا نضيع أجر المصلحين ﴾ بعد قوله : ﴿ يمسّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ﴾ دليل على أن أى إصلاح فى المجتمع يعتمد على من يمسكون بالكتاب ويقيمون الصلاة ؛ لأن المجتمع لا يصلح إلا إذا استدمت أنت صلتك بمن خلقك وخلق المجتمع ، وأنزل لك المنهج القويم . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

والجبل معروف أنه من الأحجار المندمجة فى بعضها والمكونة لجرم عالٍ قد يصل إلى ألف متر أو أكثر ، والحق يقول عن الجبال : ﴿ والجبال أرساها ﴾ ولا يقال أرساها إلا إذا كان وجد شىء له ثقل ، فأنت لا تقول : « أرسيت الورقة على المكتب » ، ولكنك تقول : « أرسيت لوح الزجاج على المكتب لبحميه » ، وأنت بذلك ترسى شيئاً له وزن وثقل .

وقد أرسى ربنا الجبال وجعلها فى الأرض أوتادا، والوتد - كما تعلم - ممسوك من الموتود والمثبت فيه، بدليل أنه لو تخلخل فى مكانه تضع له ما نسميه «تخشينة» لتلصقه وتربطه بما يثبت فيه، وهنا يقول الحق: ﴿ وإذ نتقنا الجبل ﴾ «نتقنا» أى قلعنا، وهناك قول آخر:

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة النساء)

وقال الحق أيضا:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة البقرة)

وهنا اختلاف بين «نتق» و«رفع»؛ لأن الجبل راس فى الأرض، وممسوك كالوتد؛ لذلك يحتاج قبل أن يرفع إلى عملية نزع واقتلاع من الأرض، ثم يأتى من بعد ذلك الرفع، و«نتقنا» تعنى نزعنا الجبل من مكان إرساته حتى نرفعه، وقد رفعه الله ليجعل منه ظلة عليهم، أى أن هناك ثلاث عمليات: نتق أى نزع وخلع، ثم رفع، ثم جعله سبحانه ظلة لهم، وهذا يحتاج إلى اتجاه فى المرفوع إلى جهة ما. والحق يقول: «وإذ» أى اذكر إذ نتقنا الجبل، أى نزعناه وخلعناه من الأرض، ولا ننزعه ونخلعه من الأرض إلا لمهمة أخرى أى لنجعله ظلة، وكان تظليل الغمام رحمة لهم من قبل، وصار الجبل ظلة «عذاب»؛ لأن الحق أنزل لهم التوراة على موسى فقالوا له: إن أحكام هذه التوراة شديدة. وللإنسان أن يتساءل: لماذا كل هذا التلكؤ مع التشريعات التى جاءت لمصلحة البشر؟. وجاء لهم العقاب من الحق بأن رفع فوقهم الجبل كظلة تحمل التهديد كأنه قد يقع فوقهم ﴿ كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ﴾.

لذلك نجد أن كل يهودى يسجد على حاجبه الأيسر، على الرغم من أن السجود

يقتضى تساوى وضع الجبهة على الأرض، ولكنهم يسجدون بميل إلى الحاجب الأيسر لأن السابقين لهم رأوا الجبل فوقهم وتملكهم الخوف من سقوط الجبل، وكانوا يسجدون وفى الوقت نفسه يرقبون الجبل، وبقيت هذه المسألة لازمة فيهم، وصاروا لا يسجدون إلا على حاجبهم الأيسر، بسبب حكاية الجبل الذى نتقه الله وقلعه ورفعه فصار فوقهم. ﴿ وظنوا أنه واقع بهم ﴾.

والظن هو رجحان قضية، وقد يأتى ويراد به أنه رجحان قوى قد يصل إلى درجة اليقين، مثل قوله الحق : ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ﴾

وحين بقيت الحالة هذه، وخافوا من الجبل أن يقع عليهم، ولأن هناك كتابا قد أنزل إليهم وهو التوراة وهم يعصون ويتمردون على ما فيه ؛ لذلك قال لهم الحق :

﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة الأعراف)

و « خذوا » فعل أمر، والأمر يقتضى آمرا، ولابد له من شىء يأمر به. وكلمة «القوة» هذه هى الطاقة الفاعلة، والأصل فى الكون كله أن نقبل على كل شىء بقوة؛ لأن الكون الذى تراه مسخراً ليس له رأى فى أن يفعل أو لا يفعل، بل هو فاعل دائما إذا أُمِر، وكما قلنا من قبل : لم تغضب الشمس على الناس وقالت : لن أطلع هذا اليوم، وكذلك لم يمتنع الهواء، وأيضا لا يرفض الحمار مثلاً أن يحمل الروث، أو أن ينظفه صاحبه ويأتى له بـ « البردعة » ليجعله ركوبة متميزة، الحمار إذن لا يعصى هنا ولا يعصى هناك، والكون كله مسخر بقوانين مادية ثابتة.

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة يس)

وقد وضع الحق هذا النظام للكون نظراً لأنه مقهور وليس له تكليف، والمحكوم بالغريزة الكونية صالح للحياة عن المحكوم بالاختيار الفعلى، ومع هذا الاختيار

فالإنسان له أشياء تفعل فعلها فيه ولا يدْرى عنها شيئا مع أن بها قوام حياته ، فلا أحد يمسك قلبه ويضبطه ويقول له : دَق ، والرئة كذلك وحركة التنفس ، والحركة الدودية في الأمعاء ، والحالب ، ويرغب الإنسان فى دخول دورة المياه عندما تمتلىء المثانة بالبول ، كل هذه مسائل رتيبة لا اختيار للإنسان فيها أبدا ، والأمور المحكومة بالغرائز ليس لنا فيها اختيار ، كأن يأكل الإنسان ويتكلم فى أثناء تناول الطعام فتنزل حبة أرز في القصبة الهوائية فيحاول الإنسان أن يطردها بالسعال ، هذا اسمه « غريزة » أى أمر غير محكوم بالفعل الاختيارى .

وكذلك الحيوان إذا أحضرت له طعاما فهو لا يأكل أكثر من طاقته حتى لو ضربه صاحبه . أما الإنسان فقد يأكل بعد أن يشبع ، وحين يقول له مُضيفه - على سبيل المثال - : أنت لم تذق هذا اللون من اللحم ، فيأكل . ولهذا نجد أن الأمراض في الانسان أكثر من الأمراض فى الحيوان ؛ لأن اختيار الإنسان يمتد إلى مجالات متعددة متفرقة قد تضر به وتؤذيه .

ونعرف جميعاً هذا المثال للفارق بين الإنسان والحيوان ، نجد الإنسان يغلى النعناع ويشربه ، ويطبخ الملوخية ليأكلها ، وقد فعل ذلك لأنه اختبر الاثنين ، فلم يأكل النعناع وأكل الملوخية ، رغم تشابه أوراقهما . لكن هات شجرة النعناع أمام الجاموسة أو الحمار ، وهات النجيل الناشف وضع الاثنين أمام الجاموسة أو الحمار ، ستجد الجاموسة والحمار يتجهان إلى النجيل الناشف ويتركان نبات النعناع الأخضر الرطب ، وهما يفعلان ذلك بالغريزة ، فالمحكوم بالغريزة له نظام ، ولو كان الحيوان مختارا لارتبكت حركة الحياة كلها واختلطت واشتد على الناس شأنها .

وهكذا نعرف أن مقومات الحياة تقوم على قوانين الغريزة ، وهذه القوانين موجودة فى الكون لتخدمنا نحن بنى البشر . فالكهرباء مثلاً كانت موجودة قبل أن ننتفع بها ، لكن بعد ذلك انتفعنا بها ، وكذلك الجاذبية ، كانت موجودة في الكون منذ الأزل ، لكننا لم ننتبه لها ، وحين اكتشفناها زادت قدراتنا على الاستفادة منها ، وهكذا نرى أن الإنسان واحد من هذا الكون ، إلا أنه يتميز بأن له جهة اختيار فى

بعض الأمور، وله جهة قهر في البعض الآخر، فهو يشارك الكون في القهر، ويتميز عن بقية المخلوقات - عدا الجن - بالاختيار في أمور أخرى. ونجد على سبيل المثال أن الإنسان الذي يعاني قلبه من ضعف ما، عندما يصعد هذا الإنسان سلماً ينهج ويتتابع نَفَسه من الإعياء وكثرة الحركة، لأنَّ غريزته المحكوم بها تُنبه الجسد إلى ضرورة أن تعمل الرئة أكثر لتعطي الأوكسجين الذي يساعد على الصمود.

ومثال آخر، نجد الذكر من الحيوانات يقترب من أنثاه ليشمها، فإن وجدها حاملاً لا يقربها، والحيوان في هذا الأمر مختلف عن الإنسان؛ لأن الحيوان تحركه الغريزة التي تبين له أن العملية الجنسية بين الذكر والأنثى لحفظ النوع، ومادامت الأنثى قد حملت، فالذكر لا يقربها. فاختلف الإنسان عن الحيوان في هذا الأمر؛ فلذة الإنسان في الجنس أعلى من لذة الحيوان؛ لأنها في الحيوان ترضخ للغريزة فحسب، أما في الإنسان فإنها مع الغريزة ترضخ أيضاً للاختيار الذي منحه الله للإنسان

ومن رحمة الله - إذن - أن يكون الإنسان مقهوراً في بعض الأشياء ومختاراً في أشياء أخرى، بـ « افعل » و « لا تفعل » حتى يختار بين البديلات.

وهنا يقول الحق: ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾

أي خذوا ما آتاكم في الكتاب بجد واجتهاد. وكان هذا القول مقدمة لما جاء به العلم في شرح معنى القوة. وقد وصل إلينا خبر العلم قبل أن يصل لنا واقعه المادي، فصرنا نرى الطاقة التي تعطي القوة. وجاء نيوتن ليكشف لنا قانون الجاذبية، القانون الأول والثاني والثالث، واكتشف أن كل جسم يظل على ما هو عليه، فإن كان ساكناً يبقى على سكونه إلى أن يأتي محرك يحركه. وإن كان الجسم متحركاً فهو لا يتوقف إلى أن يصدمه صادم أو يمسكه ماسك. وسمّى العلماء هذا التأثير بالقصور الذاتي. أو التعطل، أي أن الساكن يُعطَّلُ عن الحركة إلا أن يحركه محرك، والمتحرك يُعَطَّلُ عن السكون إلا أن يوقفه موقف، فأنت إذا ركبت سيارة وأنت قاعد وساكن والسيارة تسير، فإنك تظل ساكناً، إلى أن يوقفها السائق فجأة فتتحرك من مكانك ما لم تمسك بشيء.

وفي الأسواق نرى الحواة وهم يؤدون بعض الألعاب ليسحروا أعين الناس فيأتي بمنضدة وعليها مفرش لامع وأملس، ثم يضع عليها أطباقاً وأكواباً، ثم يحرك المفرش بخفة لينزعه بهدوء من تحت الأكواب حتى لا تتحرك بحركة المفرش.

وحين جاء نيوتن عقد مقارنة وموازنة بين القوة والحركة والعطالة، وقلنا: إنّ العطالة تعني أن الساكن يتعطل عن الحركة، والمتحرك يتعطل عن السكون، وهذه هي القضية المادية في الكون التي خدمت العلم الفضائي الخاص بسفن الفضاء والصواريخ. ونحن نرى السفن الفضائية ونعتقد أنها تدور في الفضاء بالوقود، رغم أن حجمها لا يسع الوقود الذي يسيرها لسنوات، والحقيقة أنها تسير بقانون القصور الذاتي أو العطالة إنها بدون وقود، وهي تندفع إلى الفضاء بقوة الصاروخ إلى أن تخرج إلى الفضاء الكوني، وتظل متحركة ما لم يوقفها موقف. ونرى ذلك في التجربة اليسيرة حين يطلق إنسان رصاصة من مسدس فتنطلق الرصاصة بقوة الطلقة مسافة ثم تقع إن لم يوجد حاجز يصدها، وهي تقع بعد مسافة معينة؛ لأن الهواء يقابلها فيصادم الحركة إلى أن تتوقف، أما في الفضاء الخارجي فليس هناك هواء؛ لذلك لا تتوقف سفينة الفضاء، لأنها تسير بقانون القصور الذاتي أو العطالة.

وهذه السفن الفضائية تعتمد في صعودها إلى الفضاء على الصواريخ لتصل إلى المدار الخارجي. والصواريخ تسير بالغاز المتفلت الذي أخذ القانون الثالث من قوانين نيوتن، وهو القانون القائل: إن كل فعل له رد فعل يساويه ومضاد له في الاتجاه، وحين يسخن هذا الغاز المتفلت يخرج من خلف الصاروخ بقوة ليندفع الصاروخ للأمام.

وهكذا نرى قول الحق: ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ في الواقع المادي والواقع القيمي. وانظر إلى غير المتدينين تجدهم ساكنين في بعض الأمور ولا يتحركون عنها ولا يجاوزونها، فالواحد منهم لا يصلي، ولا يزكي، ولا يقول كلمة معروف، وهو في ذلك يحتاج إلى قوة تحرك سكونه عن طاعة الله. ونجد أيضا من غير المتدينين من يشرب خمرة. أو يزني أو يسرق أو يرتشي. وهو هنا يحتاج إلى قوة لتصده

عن مثل هذه الحركة. ولذلك نقول : إن الإنسان في أفعاله الاختيارية يحتاج إلى أمرين : الأول إن كان ساكناً عن فعل الخير نأت له بقوة تحركه إلى هذا الخير، وإن كان متحركا إلى الشر نأت له بقوة توقفه عنه، وهذا هو ما يقدمه المنهج الإيماني في « افعل »، و « لا تفعل ». فمن يتراخى عن الصلاة وسكن عنها نقول له صلِّ. ومن يذهب للقمار ويتحرك إليه لا يمكن أن يقف إلا إذا جاءت له قوة توقفه عن ذلك وتمنعه، إذن فالقوة الشرعية تكون في المنهج بـ « افعل » ليحرك الساكن، و « لا تفعل » ليقف المتحرك شريطة أن يكون كل من السكون والحركة في ضوء المنهج.

ولنعرف أن الله سبحانه وتعالى يسخر لنا الكافرين ليبينوا لنا المستغلق علينا في قوانين الكون، فقد اكتشفوا قوانين القوة المادية وفهمناها نحن في إطار الماديات والمعنويات، وليس اكتشاف الكافرين للقوانين في الكون مدعاة للكسل والاعتماد عليهم، بل علينا أن نشحذ الهمم لنتقدم في العلم الذي يُسير أمور الحياة، ولنعلم أنه لا شيء ينشيء فينا فطرة جديدة؛ لأن البشر من قديم مفطورون على الفطرة السليمة التي تلفتهم إلى أن لهذا العالم صانعاً، فكل ذراتنا وكل اتجاهاتنا تؤكد لنا وجود إله واحد. بل إن الفلاسفة حينما بحثوا وراء المادة تأكد لهم ذلك، وأغلب الفلاسفة كانوا غير مؤمنين، وهم ببحثهم وراء المادة إنما يبحثون عن الخالق الأعظم؛ لأن الإنسان لا يبحث عن شيء لا يظن وجوده. ولأنهم جميعا يعلمون أن الإنسان طرأ على كون، وهذا الكون مقام بهندسة حكيمة، ومخلوق بقوة لا تستطيع قوى البشر جميعا أن تأتي بمثلها، إذن لابد لهذا الكون من خالق.

لقد بيّنا أن القوانين التي تظهر لنا في المادة تتماثل مع قوانين القيم، إلا أن الناس يتهافتون على قانون المادة لأنها تحقق لهم خيراً أو تدفع عنهم شرا، فيأخذون ما ينفعهم ويدعون ويتركون ما يضرهم، ولذلك احتاج الإنسان إلى منهج من السماء ليوضح ويبين له قوانين القيم التي تحقق له السعادة العاجلة في الدنيا والآجلة في الآخرة، أما قوانين المادة في الأرض فتركها الله لنشاط العقل، حتى الذين لا يؤمنون بالله يذهبون إلى قوانين المادة ويصنعونها، ويتهربون من قوانين القيم لأنها تحد من شهوات النفس، وتتعب بمشقة التكليف، فشاء الحق

سبحانه وتعالى أن يقول فيها :

﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة الأعراف)

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطى من قانون المادة ما يقرب لنا قوانين القيم فى الفعل ورد الفعل، لنفهم أن كل حركة للشر قد تحبها النفس لأنها تحقق لها شهوة من شهواتها، لكن يجب ألا يغيب عن ذهنك أيها الإنسان أن لكل فعل رد فعل مساوياً له فى الحركة ومضاداً له فى الاتجاه، فإن كنت ترتاح فى هذا العمل وتحبه وتشتهيه فتذكر جيداً رد الفعل الذى يأتيك بالعقاب عليه، وكذلك مشقات التكليف، حين تفعل الطاعة تكون صعبة عليك ولكن يجب أن تذكر رد الفعل فيها وهو الراحة وحسن الثواب، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الحاقة)

وفى هذا القول فعل ورد فعل، الفعل هو العمل الصالح فى الأيام التى مضت، ورد الفعل هو الطعام والشراب الهنيء فى الآخرة. ولمن اغتر واعتز بنفسه وجبروته وقوته يقول له الحق :

﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة التوبة)

وهكذا نجد البكاء الكثيف الشديد الكثير نتيجة للضحك القليل. ويأتى الإنسان من هؤلاء يوم القيامة ليقال له :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الدخان)

إن كنت قد فهمت أنك عزيز كريم فأسأت إلى الناس فلسوف تلقى العقاب.

ولذلك يقول لنا الحق عن المنهج : ﴿ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ . وإياكم أن تطرأ عليكم الغفلة من هذه الناحية ، فالذى يتعب الناس فى مناهج الله أنهم يغفلون عنها ؛ لأن الطاعة تكلفهم مشقة وبعض عناء ، والمعاصى تكسبهم لذة وشهوة ، فأوضح الحق : اذكروا جيدا الفعل ورد الفعل فى هذه القيم .

ونعلم أن المذكّر يحتاج إلى أشياء كثيرة جداً ، فالواعظ مثلاً يذكرهم دائماً ، وقلنا إن « الوعظ » هو نوع من إعادة التذكير بالإعلام بالحكم ، فأنا أعظ من علمَ الحكم ؛ لأنى أريد أن يفعله ، فبعد أن علمه الموعوظ علماً فقط يريد منه الوّاعظ أن ينفذه عملياً . فكلنا نعلم أن الصلاة ركن ، وأن الحج ركن ، والزكاة ركن من أركان الإسلام ، وكلنا جاءنا العلم بذلك ، لكن منا من يكسل فى تطبيق هذا العلم . ونظل ندق على دماغه بالتذكير والوعظ ، وهذا من خيرية أمته صلى الله عليه وسلم :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

ولماذا هذا التذكير ؟ ، يجيب الحق :

﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

الأمر بالمعروف عظة قولية ، والنهى عن المنكر عظة قولية ، ويحددها الرسول صلى الله عليه وسلم لبقاء التذكير ، وليأخذ كل مسلم منهج الله بقوة ، فيقول فى الحديث :

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، وإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان »[١] .

إذن فقد نقل الرسول المسألة من الأمر وهو القول والنهى وهو قول أيضاً إلى أن باشرها فعلاً ، فإن لم يستطع الإنسان منا تغيير المنكر بلسانه أو بيده فلينكره بقلبه ، ونجد القرآن قد جاء بها أمراً ونهياً ، والرسول جاء بها فعلاً ، لأن هناك فرقاً بين

(١) رواه مسلم

المعلومة التي تدخل الذهن، وحمل النفس على مطلوب المعلومة. ولذلك نحن ندرس الدين في مدارسنا، وندرس فيها أيضاً الجبر والهندسة، والكيمياء، والطبيعة، والمتعب ليس تدريس الدين، بل الذي يتعب الناس هو حمل النفس على مطلوب الدين. لكن التلميذ حين يتعلم الجبر والهندسة أو الكيمياء، فهذه علوم تعطي الإنسان خير الدنيا فيذهب لها، لكن مسألة الدين مسألة قيم؛ لذلك لا يكفي أن تعلم الدين بل لابد أن تنفذ ذلك العلم، وتنفيذ هذه المسألة يكون بالتطبيق في سلوك من أسوة حسنة وقدوة طيبة.

وهب أن الذي يُعلم الدين يدرسه معلومة ويدخلها في نفوس التلاميذ، ثم لا يجدون من أثر هذه المعلومة نضحاً على سلوك مَن علّمها، ماذا يكون الموقف؟. هنا تضعف ثقة التلميذ في أستاذه، وتضعف ثقته في الدين؛ لأنه لم ير من الدين إلا كلاماً يقال، بدليل أن من يقولونه لا ينفذونه، وفي هذا فشل في تعليم منهج الدين. والخطأ إذن في أن الناس يظنون أن منهج الدين يقف عند تعليم المعلومات الدينية، لا. إن تعليم الدين يقتضي تنفيذ ما فيه من معلومات، عكس العلوم الأخرى التي تعطي المعلومة فقط. وإن أراد الإنسان أن ينتفع بها في حياته انتفع، وإن لم يرد فهو حر في ذلك.

إذن فالتذكير مرة يكون بالأمر بالمعروف وبالنهي عن المنكر، ومرة يكون بالفعل، «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه»، وماذا يعني التغيير باللسان؟. يعني أن الإنسان إن كان عنده حسن تأدٍ واستعداد للعظة ومعرفة أدب النصح فله أن يقبل على تناول العظة. وليس كل إنسان صالحا لأن ينصح؛ لأن المنصوح يخالف المنهج، والناصح يقف أمامه حتى لا يخالف المنهج، إنه يخرجه عما ألف وأحب، لذلك يجب أن يتلطف الناصح في النصح.

ومثال ذلك نجد الطبيب حين يذهب إليه المريض يصف له الدواء، والدواء قديماً كان كله مراً. وكانت الناس تأخذ الدواء بصعوبة، ويمسك الكبار الأطفال ليعطوهم الدواء. وحين ارتقت صناعة الدواء، قام الصيادلة بتغليف جرعة الدواء بغلاف يحجب المرارة. ليتلطفوا مع مريض الجسم، فما بالنا بمريض القيم؟. إنه يحتاج إلى المسألة نفسها. لذلك لابد أن نجعل النصح خفيفاً، ولا نجمع على المنصوح بين

أن نخرجه عما ألف وما يكره من الأساليب، ولذلك قلنا : إن النصح ثقيل، لأنك حين تنصح إنسانا فمعنى ذلك أنك افترضت أنك أفضل سلوكاً منه، وهو أقل منك فى ذلك، وهذا هو أول مطب، وينظر لك المنصوح على أنك تفهم أحسن منه. ولهذا قالوا فى الأثر : النصح ثقيل فلا ترسله جبلا، ولا تجعله جدلاً. وقيل أيضا : الحقائق مرة فاستعيروا لها خفة البيان. هكذا يكون التذكير، وإن لم تستطع أن تمنع بالفعل فامنع بالقول؛ لأن التغيير باليد يحتاج إلى سلطة المغيِّر على المغيَّر، وهذا لا يأتى إلا بأن يكون للمغير مقدمة وسابقة مع المغيَّر يثبت فيها المغيِّر أنه يحب مصلحة المغيَّر. وقد يكون ذلك وارداً من غير أن تقول. كأن تكون أباه أو أمه، والأب والأم يقومان برعاية الابن، وتلبية احتياجاته طعاماً ومشرباً ومسكناً ومصروفاً. وكل منهما هو المتولى لمصالح الابن. وإذا كان الناصح ليس له هذه الصلة بالمنصوح، فعليه أن يتلطف له أولاً بما يحب. فحين يطلب منك أمراً تقوم بإجابته إلى طلبه، وتنبهه بعد ذلك إلى ما تريد أن تنصحه إنك قد قدمت له شيئا من المعروف فيتحمل منك النصح.

ومثال آخر : افرض أن ابنك قد طلب منك أن تحضر له ساعة، وبعد ذلك قالت لك أمه : إنه لم يستذكر دروسه حتى الآن. ثم تأتى له بالساعة وتقول له : يا ولد أنت أردت منى ساعة وأحضرتها لك، وتناولها له وتقول : إن أمك قالت لى إنك غير مهتم بدروسك، ولو تذكرت قولها لما أحضرت لك الساعة. وقد توجه له توبيخاً فيفضحك لأنك قد حننت قلبه، ويبنت له أنك تحبه فيقبل النصح، حتى ولو صفعته قد يقبل لأنه يعلم أنك تحب مصلحته. إذن للتذكير ألوان متعددة : عظة بالقول، وتغيير بالفعل وإنكار بالقلب.

﴿ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ والأصل فى التقوى أن تتقى شيئاً بشيء ؛ تتقى مؤلماً بجعل وقاية بينك وبينه، وهى تأتى كما علمنا فى المتقابلات ؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهو سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة البقرة)

(ومن الآية ١٣٠ سورة آل عمران)

ونجد من يتساءل : كيف يقول : « اتقوا الله » ، و« اتقوا النار »؟

نقول : نعم ؛ لأن اتقوا الله تعنى اتقوا غضب الله عليكم ، واتقوا عذاب الله لكم بأن تجعلوا بينكم وبين عقابه وقاية ، ولابد أن تجعل بينك وبين النار وقاية ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى كما علمنا له صفات جلال وصفات جمال ، وصفات الجمال هى التى تسعد الإنسان ككونه - سبحانه - " غفوراً " ، و" رحيماً " ، " باسطاً " ، وكما أن لله صفات جمال تعطيك الرغبة والإقبال عليه - سبحانه - فله صفات جلال تعطيك الرهبة ، فهو - جل شأنه - جبار ومنتقم . فاتق الله حتى تحجب عن نفسك متعلقات صفات الجلال التى منها جبار ومنتقم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ ١٧٢

وإذ تنصرف إلى الزمن ، أى اذكر وقت أن أخذ الله من بنى آدم ، والآخذ هو الله ، والمأخوذ منه بنو آدم ، والشيء المأخوذ هو ذريتهم ، هذه هى العناصر ، ولنتأمل